الفصل الرابع
الفلسفة الأوربية

عندما غربت أخيرا شمس التنوير الثقافي عن الأندلس، أشرق وجهها الوضاء من أفق فرنسا ليتبسم على ما يليها من أوربا، إلى أن أضاءت القارة بأكملها من جنوبها إلى شمالها، ومن شرقها إلى غربها. لقد انبلج بحق فجر يوم عظيم للمعارف، كان من المقدّر له أن ينير أوربا لعدة قرون في المستقبل، فها قد بدأ عصر النهضة الأوربية.

ولكن قليلا من الناس في أوربا اليوم من يدركون مدى ما يدينون به لأسبانيا الإسلامية التي انبثق منها فجر التنوير العظيم الذي يُسمى عصر النهضة. فإن الكثيرين من الفلاسفة البارزين، وأعلام الرياضيات، والعلماء، والفلكيين، والأطباء، من الأندلس، قد طُمسوا من ذاكرة أوربا، ودُفنت ذكراهم في زوايا النسيان.

ومع فجر عصر النهضة.. وبينما كان سواد الظلام يتبدد، بدأ المنطق والعقلانية يزيلان آثار الإيمان الأعمى الذي سيطر طويلا وبإحكام على تلك الأنحاء، ولم يكن من السهلِ الإبقاءُ على التوازنِ بين الفلسفات الثقافية من جهة، وبين الدين والعقيدة من جهة أخرى. ولمجتمع ذلك الزمن.. الذي جثمت عليه القساوسة.. لم يكن التحدي بسيطا حتى يدافع الناس في ذاك الحين عن الدين بالعقل والمنطق أمام الغزو الفلسفي الجديد، فقد ورثوا صيغة من المسيحية كانت من نتاج التأثير الكبير لبولس، الذي جعل منها مجموعة من العقائد الخرافية، فلم تعد هي نفس النور الرباني الذي أضاء بمعارفه قلب المسيح عليه السلام.

وحتى قبل عصر النهضة الأوربية، حاول بعض المثقفين الأوربيين الإبقاء على التوازن بين العقل والدين. ففي القرن التاسع الميلادي قدم

إ.ج.سكوتاس (E. J. Scotus) المثال الطيب بتحقيق نوع من الهدنة بين الدين والعقل. إذ كان يقول إنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة عن طريق العقل وحده، ولكن العقل والدين سويا لهما دور يؤديانه. وذكر أن العقائد الدينية كانت تقوم في بداية الأمر على أساس عقلاني، لأن الاقتناع لا يمكن أن يتولد من مجرد تخمينات، بل لا بد وأن يكون هناك بعض الأساس من المنطق لحدوث الاقتناع. وسواء حدث هذا عن قصد أو بغير قصد، إلا أنه لا بد أن يقوم كل اقتناع على بعض الأساس من المنطق. وباختصار، فقد كان سكوتاس يؤمن بأن الدين الحقيقي يجب ألا يُعتبر كالأسطورة، لأنه لا بد وأن يكون قد تأسس على ركيزة عقلانية متينة. فعند البداية.. لم يكن الدين ليمد جذوره في تربة عقل الإنسان بغير شيء من المنطق يؤيده، ولكن مع مرور الزمن.. لا بد أن هذا التلازم بين الدين والمنطق قد بدأ يضمحل إلى أن لم يعد ملحوظا، حتى إن الدين من بعد ذلك كان يبدو وكأنه معلق في الهواء، دون دعم من أعمدة المنطق التي كان يرتكز عليها. غير أن رسوخه واستمرار التمسك به على مدى الأزمان، يدل على أنه لم يكن ليصل إلى هذا المستوى الواسع من الإقناع بغير منطق أو عقل كلية.

وباختصار.. ينصح سكوتاس أن يختبر المرء.. من وقت لآخر.. صحة وسلامة عقيدته حسب ما يحكم به العقل. فإذا ظهر أن هناك تناقضا بين الاثنين، فعلى المرء أن يتبع العقل. وعلى هذا فإن العقل له الأولوية دائما على الدين.

NEWTON
نيوتن

ولعل أبلغ تعبير لهذا المنهج كان في معالجة نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧ Newton) لموضوع التثليث. فما لم يفكر عقليا وعلميا في عقائده الدينية، ظل تابعا مخلصا لعقيدة التثليث المتوارثة. ولكن.. حين قرر فيما بعد

أن يضع الدين موضع الاختبار تحت مجهر المنطق والعقل، لم يجد مناصا من نبذ عقيدة التثليث، التي لم تنجح في رأيه في اجتياز اختبار العقل.

وبهذا فقد صار نيوتن على طول الخط، أعظم الضحايا التي قُدمت على مذبح الصليب، وذلك بسبب تعصب الكنيسة المسيحية. وكان قد تم انتخاب نيوتن لزمالة "كلية الثالوث المقدس غير المجزأ" في جامعة كمبردج، وذلك تقديرا لعبقريته. وظل يشغل منصبه هذا لسنين عديدة. غير أنه في عام ١٦٧٥ عُرض عليه أن يختار بين التخلي عن كرسيه في الجامعة والإبقاء على معتقداته، أو أن يتنازل عن معتقداته ويؤكد بحلف اليمين على تمسكه بالعقيدة التقليدية، وبأن يُرسَم كهنوتيا مرة أخرى.. تكون هي الأخيرة.

ولكن "الثالوث المقدس غير المجزأ" نفسه وقف حائلا في طريقه. ولم يكلفه رفضه العنيد لعقيدة التثليث فقدانه لمنصب الزمالة فحسب، بل أفقده أيضا راتبا محترما قدره ستين جنيها في العام. ولم يكن هذا بالمبلغ القليل، بالحكم على قيمة النقود في تلك الأيام. لقد جردوه من منصب الزمالة، ومن كرسيه في الجامعة، بسبب تهمة الهرطقة. ولمجرد أن عبادة المسيح في نظر نيوتن كانت تعتبر وثنية، وهذا إثم كبير في رأيه، غير أنه اتُّهم بالهرطقة. ويكتب ر. س. وستفال (R.S. Westfall) عن نيوتن فيقول:

> "إنه يعترف بالمسيح كوسيط بين الرب والجنس الإنساني، غير أنه يعتبر المسيح في مرتبة أدنى من الأب الذي خلقه".[١]
>
> "لقد بدأت تستولي عليه قناعة بأن احتيالا خطيرا قد بدأ في القرن الرابع أو الخامس.. أفسد الميراث الذي خلفته الكنيسة الأولى. وكانت الكتب المقدسة.. التي بدأ نيوتن يؤمن بأنها قد حُرفت لتُعضد التثليث.. عاملا أساسيا في وقوع هذا الاحتيال. ومن المستحيل القول بالتحديد متى حلت عليه هذه القناعة، فإن المذكرات الأصلية نفسها تشير إلى وجود شكوك مبكرة، وبدلا من أن يكبت تلك الشكوك، إذا به يتركها تسيطر عليه".[٢]

وعلى هذا.. كان إيمان نيوتن بوحدانية الله تعالى، ورفضه التثليث، مبنيا على بحثه الأمين غير المتعصب في حقيقة العقائد المسيحية. وهناك الكثير من التعليقات التي كتبها بخط يده على هامش الكتاب المقدس الخاص به، يقول في أحدها:

"ويترتب على هذا أن يكون الأب إله الابن (عندما يُعتبر الابن) كإله".[٣]

وبهذا يخلص وستفال إلى القول:

"... تكاد أن تكون الثمرة الأولى لأبحاث نيوتن في اللاهوت، هي الشك في مقام المسيح وعقيدة التثليث".[٣]

خلال عصر النهضة الأوربية.. حين تجدد الاهتمام على نطاق واسع بالسؤال القديم عن العقيدة مقابل العقل، كان من نصيب رينيه ديكارت (Rene Descartes ١٥٩٦-١٦٥٠) أن يُبقي لواء الإيمان مرفوعًا عاليًا. فالقضية لديه لم تكن هي المسيحية مقابل العقل، وإنما كانت القضية بشكل مباشر.. هي الإيمان بالله تعالى في عصر تملأ العقول فيه الأفكار الفلسفية.

كان ديكارت رجلا فريدًا في رجاحة عقله، وكان أحد رجالات المنطق الأفذاذ. وهو لم يؤمن بالله تعالى فحسب، بل كان الأول من بين الفلاسفة الذين تبنوا قضية أن العقل يقود مباشرة إلى الله تعالى. ومن حسن حظه أنه رفض أن ينخرط في الجدل حول معقولية التثليث. وكان ما أثبته ببساطة هو وجود كائن أعظم واحد. ولعل هذا الرفض من جانبه للعقائد المسيحية السائدة في زمنه، هو ما جعله يخسر مكانا مرموقا بين رجال الفكر، من أصحاب الإيمان التقليدي في ذلك العصر. ويشرح ج. غوتمان (J. Gutman) هذا الوضع في كتابه: "الفلسفة"[٤]. ولا يُذكَر فيه ديكارت على أنه مؤمن بالله، كما كان هو في الواقع، وإنما يُذكر على أنه رجل يزعم أنه يؤمن بالله. وقد عومل ديكارت بهذه المعاملة، لا لشيء سوى تجاهله.. بسبب عقلانيته.. للتثليث الذي تنفرد به المسيحية.

ومما يؤسف له أن ما اعتبروه تمردا على الله تعالى، لم يجرح مشاعر القساوسة المسيحيين كما كان يجرحها الانتقاد العلني للمسيحية. إنها حقا مأساة كبرى.. أن فيلسوفا عظيما وعالم رياضيات فريدا في سمو شأنه مثل ديكارت.. لم يلق التكريم الوافي الذي يستحقه. ولا ننسي أنه لم يكن مجرد فيلسوف متميز فحسب، بل كان أيضا عالما بارزا في العلوم الهندسية.. أضاف الكثير إلى أعمال فيثاغورث (حول ٥٨٠ – ٥٠٠ ق.م) مما رفع شأن العلوم الهندسية إلى آفاق لم تبلغها قط من قبل. فقد تضمنت إضافاته الواسعة في مجالات الهندسة الكثير من البحوث الرائدة التي سوف تُذكر دائما بإعزاز يجعل الرؤوس تنحني له إجلالا واحتراما.

وسمة أخرى من سمات تميزه وعظمته.. هي أنه كان أول من أدخل إلى الفلسفة النّزوع إلى الجدل الرياضي. فقد بدأ مفهومه للحقيقة والحقيقة المطلقة برحلة قام بها داخل ذاته، وكان معياره للحقيقة يتعلق بالانطباع الأول الذي يشعر به المرء بعد سماعه أو ملاحظته لأمر ما. وكان على قناعة شديدة بأن الأمر الذي لا يجتاز اختبار الحقيقة في التو لهو أولى بالشك فيه. وبمعنى آخر.. إن أي أمر يقبله المرء على أنه حقيقة، بغير حاجة إلى نقاش جدلي حوله، فذلك الذي يتعين قبوله على أنه بالفعل حقيقة واضحة. وعند تطبيق هذا المنطق على نفسه، فإن ما يلي يمكن أن يكون إعادة صياغة لمنطقه، وكأنه يقول: لأني أفكر.. فأنا موجود، وأنا أقبل هذه المقولة البسيطة بغير حاجة إلى إثباتها بأية استدلالات منطقية.. إذن فبلا ريب، ومن المحتم، أن أكون موجودا.

وعلى ذلك تكون هذه هي الحقيقة الواضحة الأولى الرئيسية. لقد كانت جملة بسيطة وساحرة تلك التي صاغها في هذا الشأن: (*Cogito, ergo sum*) أي "أنا أفكر.. إذن أنا موجود".[٥] وكانت الحقيقة الثانية التي توَصل إليها بعد الحقيقة الأولى، هي حقيقة وجود الله تعالى. فقد برهن رياضيا على أن نفس فكرة هذا الوجود، لهي الدليل الكافي على وجوده

عز وجل، تماما كما أن مجموع الزوايا الثلاث للمثلث، هي بكل تأكيد تساوي مجموع الزاويتين القائمتين.

وسواء كان برهانه الفلسفي على وجود الله تعالى مقبولا أو غير مقبول من أجيال الفلاسفة الذين تلوه، فإنهم على الأقل تأثروا به تأثرا بالغا. وعلى ذلك، فقد استُخدم المنطق على نطاق واسع بين أجيال المفكرين التابعين لإثبات صحة الإيمان بوجود الله تعالى أو عدم صحته. وفيما بعد نشأت أيضا المادية الجدلية كنتاج لنفس هذا الاتجاه.

وقد استمرت هذه الآلية الفكرية حتى القرن السابع عشر، إلى أن جاء جون لوك (John Locke)، وبركلي (Berkeley)، وهيوم (Hume)، الذين اعتبروا أنه لا توجد علاقة بين المدركات الحسية والعقل من جهة، وبين الإيمان والمعتقد من جهة أخرى. ومع إقرار لوك بهذه الفلسفة، فإنه لم ينف بالتحديد فاعلية صحة الإيمان والمعتقد، وإنما فوّض أمرها للمؤمنين لكي يعتقدوا ما يشاءون بأية طريقة ما. وكان من نصيب جيل متأخر من الفلاسفة الأوربيين أن ينكروا وجود الله تعالى على أساس من المنطق، وكان من أبرزهم روسو (Rousseau)، ونيتشة (Nietzche).

أعلن نيتشه بأسلوبه المثير أن الرب قد مات، بينما نادى روسو من جانبه باصطناع دين جديد، يحل محل الأديان السماوية. وقد أكد على الحاجة إلى دين يقوم على دراسة الطبيعة الإنسانية، والتجارب الإنسانية. واقترح أن يقوم العقل البشري نفسه بخلق مجموعة من القوانين المدنية للحياة. ويبدو أن روسو كان أول الفلاسفة الأوربيين الذين تمردوا بشكل علني على الفلسفة التي لها أي تعلق بالإيمان بالله تعالى. لقد كان ذلك هو العهد الذي تأثر فيه الدين تأثرا بالغا، وبشكل ملحوظ، بالحركة العقلانية.

وبعد هذا الجيل من الفلاسفة.. جاء أصحاب مذهب المنفعة* مثل ميل (Mill)، وسادجويك (Sadgwick). وكانوا يؤمنون باختيار المصلحة..

* وهو مذهب يقول إن الأعمال تكون صالحة إذا كانت نافعة. (المترجم)

أي أن يكون للمرء حرية الوصول إلى كل شيء فيه مصلحته، مهما كان، وبغير أية قيود. ولكن حينما تتناقض المصلحة الذاتية مع مصلحة الغير، فإنهم ينصحون بالاستعانة بالعقل للتحكيم بينهما.

وهذا يعني أنه أثناء الانغماس في اللذة.. حين يقتضي الأمر الاختيار بين الأنانية المفرطة والتضحية بالمصلحة الشخصية من أجل الغير، فإن العقل يجب أن يحكم بين الاختيارين. ويالها من فلسفة بغيضة حقا، إذ أنها لا تفيد بشيء ولا تعني شيئا في واقع الأمر. فإن أولئك الذين يستغرقون في النهل من اللذة، لن يحتاجوا إلى نصيحة من بنتهام (Bentham) وميل وسيدجويك وغيرهم، حتى يتوقفوا عند حد الاعتدال، ويمتنعوا عن الوثوب في بحر الأنانية البالغة. فالاختيار هنا.. بين الذاتية والغيرية.. لن يكون له محل على الإطلاق. ومن منهم يكون في حاجة إلى تحكيم العقل في مجال رغباته الشهوانية؟ إن الذي يغرق في لذائذ الجسد وشهواته الجنسية.. ليس في حاجة إلى مشورة، فهو يسلك هذا السبيل، وهو يعلم جيدا ما له وما عليه.

تلا أصحابَ مذهب المنفعة جيلٌ من الفلاسفة.. كان لهم أثر عميق على الفلسفة الأوربية. وكان لوك وبركلي وهيوم على رأس هذه الحركة، وهم الذين عُرفوا بالتجريبيين، وتأثرت بهم أجيال عدة من الفلاسفة. ويمكن تلخيص فلسفتهم في جملة بسيطة: على المرء أن يؤمن فقط بالأمور التي يمكن استخلاصها من المشاهدات التجريبية التي يمكن إثباتها. وكانوا يؤمنون بأن الأمور التي تقوم على العقل المحض وعلى الدلائل، هي وحدها الجديرة بالقبول.. وهي الأمور التي يمكن إعادة اختبارها باستمرار خلال التجارب العلمية، فتؤدي بالدوام إلى نفس النتائج. ولا يمكن تصور تعريف للعلم أفضل من هذا.

وجاء عمانوئيل كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤ Immanuel Kant) بعد هيوم، الذي حرك فكر "كانط"، فتأثر بفلسفته الواقعية تأثرا عميقا. ومن

هنا كانت واقعية "كانط" تدين بالكثير لتجريبية هيوم. وحيث إن "كانط" كان "لا أدريا"*، إلا أنه كان من الحكمة ليدرك أنه لا غنى عن الفضيلة والأخلاقيات. ولعله كان أول الرواد الذين اعتبروا أن الفضيلة يجب أن تنشأ عن العقل وحده. وقد قسم الواقعية إلى واقعية مُدركة⭘ (Phenomenal reality) ، وواقعية ذاتية◎ (Noumenal reality). وكان يؤمن بأن البحوث العلمية لا يمكن أن تتعدى الظواهر المدركة، وعلى هذا فقد اعتبر أنه لا مجال لإثبات وجود الله من خلال آليات استقصاء المدركات. وفي العادة يُطلق على منهجه المثالية المتعالية✪ (Transcendental idealism).

أدى هذا بالتالي إلى ظهور المثالية المطلقة عند هيجل (Hegel)، وقد ظهرت الكثير من التعبيرات الجديدة خلال تلك الحقبة الخصيبة لنمو فلسفته، مثل تعبير: المنطق الوضعي❖ (Logical positivism)، والوجودية◆ (Existentialism)، والموضوعانية✠ (Objectivism)، ومع ذلك فلم تتم إضافة جديدة ذات شأن إلى فلسفات أرسطو وأفلاطون، اللذيْن تقلدا الزعامة المطلقة بغير منازع على طول الزمان. وحتى الصيغ الذكية مثل "المادية الجدلية" و "الاشتراكية العلمية"، لم تكن سوى أسماء أخرى لما

---

* يتبع مذهب اللاأدريين الذين يؤمنون بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها. (المترجم)

⭘ ذات علاقة بالظواهر لا بالفرضيات. (المترجم)

◎ مفهوم الشيء كما هو في ذات نفسه أو كما يبدو للعقل المحض. (المترجم)

✪ الفلسفة المتعالية هي كل فلسفة تقول بأن اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر لا من طريق الخبرة أو التجربة. (المترجم)

❖ منطق الفلسفة الوضعية التي تُعنى بالظواهر والوقائع اليقينية فحسب، مُهملة كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة. (المترجم)

◆ فلسفة تؤكد على حرية الفرد ومسؤوليته. (المترجم)

✠ إحدى النظريات التي تؤكد الحقيقة الموضوعية وبخاصة بوصفها متميزة عن الخبرة الذاتية. (المترجم)

نجده قد نوقش بغير تحفظ في أعمال أرسطو. غير أنه يجب ألا يغيب عن البال أن الفلاسفة الأوربيين كانوا يدينون لمن سبقهم من فلاسفة المسلمين في الأندلس وبغداد بأكثر مما كانوا يدينون به لفلاسفة اليونان. لقد كان ذلك هو العهد الذي تربعت فيه على العرش المثالية المطلقة لهيجل، ومع هذا فإن القليل من الأوربيين يدركون أنها لم تكن سوى استمرار لمثالية أفلاطون. وإذا فهمنا هيجل جيدا لأدركنا أنه كان يعتبر الذاتانية* (Subjectivism)، ترتبط ارتباطا متلازما مع الحقائق الخارجية، وهذا يعني أنه لم ينكر الحقائق الموضوعية كلية، ولكنه جعل أهمية عظمى للأفكار.

في مدرسة الفكر الإسلامي كان الصوفيون الموضوعانيون أمرا مختلفا كلية، إذ أنهم بلغوا بذاتانيتهم إلى مستويات شاهقة.. لم يكن يحلم بها الفلاسفة الأوربيون، حتى إنه بالمقارنة يمكن اعتبارهم فنانين.

لا توجد في أعمال أي جيل من أجيال الفلاسفة الأوربيين دراسة لما يتعلق بقضية الوحي وما يؤدي إليه من المعرفة. ومن بين الفلاسفة الذين كانوا يؤمنون بوجود الله تعالى.. استمر "ديكارت" متمسكا باقتناعه أن العقل يجب أن يأتي قبل الإيمان. وكان يؤمن بالله لأن عقله كان يؤيد إيمانه، وبالتالي لم تكن لديه مشكلة التناقض بين العقل والإيمان. وكان من رأي "فولتير" (Voltaire)، و"توماس باين" (Thomas Paine)، أن العقل لعب دورا أكثر أهمية من العقيدة خلال تطور الحضارة الإنسانية. وكان وجود بعض الأشكال التجريدية لوجودٍ ما فيما وراء عالم المادة، هو الموضوع الذي دارت حوله بعض البحوث في الفلسفات الميتافيزيقية، وأما موضوع الوحي.. فلم يتطرق البحث إليه بتاتا بأية جدية.

ورغم الاهتمام بالفلسفة في ذلك العهد، فعند الحكم على قيمة الإيمان بالمقارنة مع العقلانية، نجد أن الفلاسفة كانوا صامتين إلى حد ما عن موضوع ما إذا كان الوحي قد لعب أي دور في هداية الإنسان إلى

* مذهب فلسفي يقيم المعرفة كلها على أساس من الخبرة الذاتية. (المترجم)

الحقيقة والمعرفة. وعلى أحسن تقدير.. فقد ظلت اهتماماتهم تدور حول وجود الله تعالى، ولكن من الناحية الفلسفية فقط. ولم تُبذل أبدًا أية محاولة للعثور على أي أثر في الكون يُثبت وجود الله عز وجل. ولم تُبحث أبدا بجدية أهمية الوحي السماوي. وبالمقارنة.. نجد أن المحاولات التي تُبذل في العصر الحديث لالتقاط رسائل من العالم الخارجي تبدو أعظم وأكثر جدية، حتى إن هذه المحاولات قد صارت بالفعل منظمة على المستوى الرسمي، وتمولها القوى العظمى في العالم.

وكلما اقتربنا من العصر الحديث.. منذ "بنتهام" و"ميل" و"سيدجويك"، نجد أن هناك نزوعا متزايدا للاعتماد على العقلانية، بينما راح الإيمان يُطرح جانبا بالتدريج ليأخذ مكانا أقل أهمية وأدنى معنى، وكان الإيمان بالله هو آخر ضحايا هذا التعويل على العقلانية. وهكذا اكتسبت العقلانية السيطرة بالتدريج وبتمهل، مثل بزوغ فجر طويل في المناطق الشمالية، لا يعترض ظهوره من حين لآخر سوى انبثاق حزمة من الهالات القطبية.

لقد جعل العقلانيون الأفضلية للعقل على كل الوسائل الأخرى للوصول إلى المعرفة والحقيقة، ومع ذلك فإننا نجد بين العقلانيين أيضا من يؤمن بالمسيحية ومن لا يؤمن بها، إلا أن غير المؤمنين هم الذين صارت لهم اليد العليا. وفي عصر العقلانية.. كان على الكنيسة أن تدافع عن المسيحية على نحو ما باستخدام ما يمكن لها أن تجمعه من أدلة منطقية، غير أنه كان خطأ استراتيجيا من جانب الكنيسة أن تُستدرج في الدخول إلى ميدان الصراع مع الفكر والعقلانية.

في هذه المرحلة كان كيركغارد (Kierkegaard)، وجاسبرز (Jaspers)، ومارسل (Marcel)، أكثر البارزين من بين المؤمنين بالله. وكان كيركغارد هو الأول من بينهم الذي دق ناقوس الخطر محذرا الكنيسة ألا تقدم على الانتحار.. بالدخول إلى حلبة المناظرات المنطقية بين العقل والإيمان. وقد

كتب كوبلستون (Coppleston)، في (الفلسفة المعاصرة – Contemporary Philosophy) مشيرا إلى جهود كيركغارد لإنقاذ الإيمان من هجمة العقل فقال:

"بالنسبة لكيركغارد.. كان هذا المسلك يعتبر ببساطة غدرا وخيانة للمسيحية. إن جدليات هيجل تعتبر عدوا من الداخل، وليس من شأن أحد أن يخفف من عقائد المسيحية حتى تروق لعامة الجمهور المثقف. إن عقيدة اتحاد اللاهوت والناسوت في المسيح كانت تعتبر حجر عثرة لليهود، وحماقة لليونانيين، وهي ستكون كذلك على الدوام. فإن هذه العقيدة لا تسمو فوق العقل فحسب، بل إنها تتعارض معه. وهذا هو التناقض المتفوق.. حيث لا يمكن إثباتها إلا بالإيمان والرغبة والاستغراق الروحي العميق. واستبدال الإيمان بالعقل يعنى موت المسيحية".[٦]

إن ما لم يوضحه كيركغارد هو أن العكس أيضا كان صحيحا، فهو يكاد يقول إن الديانة المسيحية خالية تماما من المنطق والعقلانية، ولا يمكن الالتزام والتمسك بها إلا إذا اختبأ المرء كالسلحفاة داخل ترس من التجاهل العنيد للعقل.. وفي اللحظة التي تتجرأ السلحفاة على إخراج عنقها خارج الترس، فإن العقلانية المتربصة لمثل هذه اللحظة سوف تقتلع رأسها. ومع ذلك، فإن كيركغارد ظن أنه يستطيع أن يُبقي على عقله وعلى مسيحيته في آن واحد. ولعله عرف كيف يأكل كعكته ويحتفظ بها في نفس الوقت!

لقد ظل بركلي وهيجل على تمسك متصلب بمبدأ أن العقل يجب أن تكون له الأفضلية على التجارب الحسية. ولم يكن الرب بالنسبة لهما سوى وصف تم اختراعه لملء الفراغ في ثغرة منطقية. وهكذا استمر الجدال مُستعرًا بين فلاسفة أوربا المؤمنين وغير المؤمنين. وظل مستعرا إلى أن انطفأت ناره بعد أن أكلت النيران نفسها، ولم يبق منها سوى رماد الإيمان الذي ملأ توابيت اللاأدرية والملاحدة.

أما فيما يتعلق بالمؤمنين من الفلاسفة اليهود، فكانت استراتيجيتهم

أقل عرضة للانتقاد. فقد كانوا يؤمنون بتاريخية ديانتهم، وبالماضي الظافر لليهودية على خصومهم وأعدائهم من الأقوام الأخرى، وكان هذا كافيا بالنسبة لهم كي يجعل جذوة الإيمان مشتعلة لديهم. كما أن مناقشة قضية العقل في مقابل الإيمان.. لم تكن لها أهمية لديهم.

ومن بين الملاحدة.. فإن نيتشه، وسارتر (Sartre)، ومارلو بونتي (Merleau-Ponty)، وكاموس (Camus)، وماركس (Marx)، كانوا فئة خاصة بحد ذاتهم. ولم يؤمن أحدهم بتعميم أحكامهم، وعلى ذلك لم يكن من الممكن لهم تعميم المذهب الذاتي*، فإن الخبرة الذاتية لكل شخص تتميز بالتفرد، بحيث لا يمكن أن يتشارك فيها الآخرون على وجه كامل.

ونحن نعتقد أنه من الضروري هنا أن نخصص جانبا للحديث عن الماركسية. ومهما اختلفنا مع هذه الفلسفة، فلا يمكن إنكار أنها اكتسبت مكانا سوف يظل دائما محل احترام عدد كبير من الناس في أنحاء العالم.

MARX
ماركس

إن من حق ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) أن يُفرَد له جانب من الحديث بصفة خاصة كواحد من بين الفلاسفة الملحدين في القرن التاسع عشر. ولم يكن إنكار وجود الله بالنسبة له موضوعا عارضا، وإنما كان محصلة متكاملة لفلسفته التي لا تتوافق مطلقا مع الدين. وهو يعتبر أن الناس مثل العناصر التي تتفاعل مع بعضها بعض، بتأثير قوانين اجتماعية واقتصادية تحكمهم، ولذلك فمن الواجب أن يتحرّروا من سلطان تدخل الدين، الذي يعرقل المسيرة الطبيعية للتقدم. وبالنسبة لماركس.. لا يوجد للوحي والإلهام مكان في معجم ألفاظ فلسفته.

يليه نيتشه بشخصيته الخاصة المهيمنة.. الذي سخّر قلمه كالسيف الحاد في هجوم شرس على الإله.. إلى أن أعلن وفاته، أو لعله هكذا ظن.

* الذي يقَيّم المعتقدات الدينية على أساس من الخبرة الذاتية. (المترجم)

وهو في الواقع لم يعرف أي إله سوى إله العقيدة المسيحية، وذلك هو الإله الذي اغتاله بسيفه العقلاني. وأثبت هذا صحة تحذير كيركغارد للقساوسة بالتزام الصمت المطبق فيما يتعلق بالسر المقدس لعقيدة التثليث، بدلا من خلق المتاعب بمحاولة الدفاع عنها باستخدام الآليات العقلانية.

والواقع.. إن الكنيسة المسيحية التي جعلت من مفهوم الإله لغزا سخيفا منافيا للعقل.. هي التي دفعت معظم فلاسفة أوربا الملحدين في هذه المرحلة إلى الإلحاد. ولعل سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠) كان أكثر فلاسفة الإلحاد المتأخرين إثارة وسخرية. فقد كان يعرف كيف يصوغ عبارة بسيطة لتحوي أفكارا عميقة. فقال تعبيرا عن عجز الإنسان.. رغم حُريته.. عن أن يتدبر أمره بنفسه في عالم يخلو من وجود الله:

... man is condemned to be free.

"... إن الإنسان محكوم عليه أن يكون حُرا. "[٧]

وكان يعني بهذا أن مسؤولية الاختيار الملقاة على عاتق كل إنسان هي تحد بالغ الصعوبة، ولا يوجد من يقود خطوات الإنسان في هذا الوجود المقفر الموحش سوى الإنسان نفسه. وفي تعليق له على واقعة حضور الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام.. قال إنها لم تكن سوى ظاهرة حسية، إذ كان يرى أن الوحي الإلهي الذي جاءت به الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام، لم يكن سوى انعكاسات لروحه المكروبة. وإن كنا نرى خطأ سارتر في اعتباراته.. فإننا نفهم مدى حقده وانطلاقاته الملتهبة اليائسة. إن انعكاسات "الروح المكروبة" تعبير أكثر ملائمة لسارتر نفسه، الذي ربما يكون قد عانى من ويلات الكرب والسخط في فلسفته الإلحادية، التي تخلو تماما من وجود الإله. فاعتبار الوحي انعكاسا لكرب الروح يكشف بوضوح عن وجهة نظر الملحد.. هذا إذا كان الملحدون يعترفون أصلا بأن لهم أرواحا. لقد كان تعريف برنارد شو (Bernard Shaw) للوحي يقترب من تعريف سارتر ولكن بغير أن يطابقه، فهو يُعرّف الوحي بأنه "أصوات من داخل النفس"،

وهذا التعريف، على أحسن تقدير، يتلاءم مع روائي يفتقد عمق وقوة تفكير سارتر! وعلى أية حال.. لقد فشل سارتر في التمييز بين الوحي السماوي وإلهام النفس، وهي ألفاظ لم تجد لها مكانا في فلسفته. أما الذي وجد له مكانا فيها فهو كُرْب الروح، ولسان ملتهب.. ينطلق من حين لآخر في ثورات من اليأس.. فلا وحي يتنَزل من أعلى، وما ينشأ ويحدث إنما ينشأ من أعماق اليأس الإنساني.

وكان هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) لأدريا آخر.. غير أن إنكاره لم يكن في قوة وشراسة سارتر، فلم تكن فلسفته متعلقة تعلقا مباشرا بالأمور الدينية. وكان من بين أعماله البارزة.. محاولته خلق جسر بين الذاتية والموضوعية.

لقد كان هو أول مَن أبرزَ التناقضَ الجدلي بين أفكار جيل والجيل الذي يليه. وهذه هي نظرية هيجل المعروفة للصراع الجدلي بين المؤمنين بوجود الله والمعارضين لهم. لقد كان ببساطة يؤمن بالتناقض في الأفكار. وهذا يعني أن الأفكار التي يتناقض بعضها مع بعض، بغير أن تكون متضادة، إنما تكون متشابكة في صراع دائم من أجل التفوق.

وقد أدى هذا في أطروحته، إلى أن الأفكار العالية هي نتاج حتمي للعمليات الجدلية المتقدمة. وهذا بالتالي أدى إلى مولد نقيضة* أخرى تولدت بدورها من أطروحات متقدمة، وهكذا دواليك حتى الوصول أخيرا إلى أطروحة متوازنة توضح فهما إيجابيا ثابتا لطبيعة الحقيقة الموضوعية.

وقد استعمل هذه الطريقة لإثبات دور المنطق في الوصول إلى المعرفة. غير أن هذه الطريقة الجدلية للوصول إلى الحقيقة، ليست ممكنة إلا من خلال أنظمة واقعية وليست تجريدية. والمحصلة النهائية لهذا الصراع بين الأفكار هو ما سماه الحقيقة المطلقة (Absolute idea). كان هذا هو مفهوم

* المرحلة الثانية من مراحل العملية الجدلية. (المترجم)

هيجل عن الواقعية المطلقة للحقيقة الكونية. فالتاريخ عنده ليس سوى حركة الفكر، ودمج الأطروحات والنقيضات في جميعيات✪. وفي كلمات لينين.. كان هيجل يؤمن بأن:

"الحياة تبعث على وجود المخ، والطبيعة منطبعة في المخ الإنساني، ويستطيع الإنسان أن يصل إلى الحقيقة الموضوعية من خلال ممارساته وبراعته في اختبار وتطبيق صحة هذه الانطباعات".[٨]

وفي رأيه أن أية نظرية أيديولوجية لا تتعلق بمجال التجارب المادية لا تستحق أي اهتمام جدي، وبالتالي فإن مناقشة أهميتها تكون فقط من الناحية الأكاديمية البحتة.

وعند تطبيق فلسفة هيجل.. كان ماركس هو الذي جرّب إعطاء الإنسان حياة جديدة تقوم فقط على قدرة التفكير لديه. ومع أن هذا كان مسلكا علمانيا خالصا في أول الأمر، إلا أنه ما لبث أن استحوذ على تقدير من المجتمع، فقد وُلد نوع من الديانة السياسية والاقتصادية كانت من خلق الإنسان.. قامت على إنكار وجود الله. وكان المفكرون الماركسيون في اتفاق مع وجهة نظر هيجل، فاستبعدوا فكرة الحقيقة الأبدية، ولم يقبلوا الحقيقة الموضوعية على أنها الحقيقة المطلقة، فقد كانوا يرون أن الحقيقة ترتبط دائما بزمن محدد أو بظرف معين.

ENGELS
إنجلز

ومن بين المفكرين الاشتراكيين.. كان إنجلز (Engels) قد قَبِل فكرة الحقيقة المطلقة، ولهذا فقد واجه استنكارا من بوغدانوف (Bogdanov). وعلى العموم.. فإن الحقيقة عند الفلاسفة الشيوعيين، هي مُسمًّى للمعرفة التي تُكتسب عن طريق الدراسة الموضوعية، التي تخضع لمرحلة معينة ولظروف محددة. وانحصارا في هذه المرحلة والظروف المعينة.. تكون

✪ نتيجة الجمع بين الأطروحة والنقيضة في الجدل الهيجلي. (المترجم)

الحقيقة هي المعرفة، وتكون المعرفة هي الحقيقة. وعلى هذا يمكن تعريف المعرفة بأنها الحقيقة الموضوعية دائبة التغير، مقابل التغير المستمر في البيئة.

ولم يستغرق الأمر طويلا إلا وقد تحولت هذه الفلسفة المادية إلى مذهب حياتيّ، وصار ماركس هو الرسول الأعظم لهذه الديانة اللاإلهية وكان وسيطها أيضا. إذ يجب أن نلجأ إليه الآن عند الدراسة المتعمقة لهذه الفلسفة، فقد كان من المقدر أن يتغير وجه هذا العالم بسبب القوة المذهلة لفكرته هذه، وليس لمجرد آليات المادية الجدلية.

وعلى مقياس الصراع بين الأفكار والمعتقدات الإنسانية، نجد أن الدين.. بما يؤكده على دور الوحي باعتباره أكثر الوسائل فعالية في الهداية.. يقف على الطرف الأقصى للمقياس، بينما تقف الماركسية.. بإنكارها التام للحقيقة الموحى بها.. على أقصى الطرف الآخر. وبين هذين الطرفين تقع مختلف الفلسفات التي يقترب بعضها من أحد الطرفين، بينما يقترب البعض من الطرف الآخر. ولكن نفي جميع ما يمثله الدين نفيا تاما ومطلقا لم يوجد في أية فلسفة من الفلسفات كما هو موجود في فلسفة المادية الجدلية والاشتراكية العلمية.

ويبدو أن من بين جميع فلاسفة أوربا.. كان ماركس هو الأكثر ذكاء وواقعية، ومع ذلك فقد كان مثاليا بغير أن يعترف بمثاليته، شديد المكر في استراتيجية فلسفته ضد الله تعالى وضد الدين. وعنده لا يعني الله ولا الوحي شيئا، وكذلك أيضا لا مكان للإلهام في فلسفته. وهو لا يتفق مع مثالية هيجل التي تسبق الحقائق الموضوعية وتساهم في فعالياتها.

ففي فلسفة هيجل.. تولد الفكرة أولا، ثم تتحقق التغييرات المادية فيما بعد تحت تأثيرها. وعلى ذلك.. حين تنمو الفكرة إلى مرحلة معينة من النضج، وتصير حبلى بأفكار جديدة، تخضع هذه الأفكار بدورها لاختبارات التحقيق. وهكذا تنتقل موجات هذه الأفكار، موجة إثر أخرى، وهي تُحَوّل الوقائع غير الموضوعية إلى حقائق موضوعية مشهودة

يمكن إثباتها.

لقد كان ماركس من الذكاء بمكان حيث إنه استطاع أن يتوقع البلاء قبل وقوعه. فإذا كانت الأفكار غير الموضوعية تتحول إلى وقائع موضوعية، كما تقضي بذلك الفلسفة الهيجلية، فينبغي أن تكون الأفكار غير الموضوعية قد سبقت في وجودها الحقائق الموضوعية، مما يخلق سلسلة خطيرة من الأسباب والمسببات. إذ أن وجود الأفكار يقتضي أن يسبقه وجود الوعي الذي لا يمكن تَصَوّر وجوده بغير وجود الحياة، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى الله تعالى.. باعتباره المؤثر والمحرك الأعظم، الذي يمكن أن يحقق التغييرات الموضوعية بواسطة آليات الفكرة. وربما لهذا السبب لم يؤيد ماركس علنا المثالية الهيجلية، بينما من خلال تحريف دقيق في تتابع الأسباب والمسببات.. جعل ماركس من الفلسفة الهيجلية فلسفة خاصة به، إذ أنه وضع المادة قبل الفكرة. وعلى ذلك لم يبدأ الصراع الجدلي عنده بالأفكار، وإنما يبدأ بالمادة المحكومة بالقوانين الطبيعية التلقائية. وعلى هذا فلا بد للمادية الجدلية أن تصل إلى نتيجتها المنطقية، بمساعدة من الأفكار أو بغير مساعدتها، إذ أن المادة المجردة سوف تشق طريقها الخاص بالتأثير على الحياة وتشكيل مصيرها. إن هذه الفلسفة تتصور سلفا عدم وجود الله تعالى، الذي كان من المحتم إزاحته عن كرسي قيادة شؤون الإنسان، لأن الإنسان وحده هو الذي من حقه أن يتولى زمام أمور نفسه بمسؤولية كاملة.

وعلى هذا.. كان اعتماد ماركس على العقل والمنطق اعتمادا كاملا، مثلما كان رفضه لله تعالى والوحي الإلهي رفضا كاملا أيضا. فإن مسألة المثالية المطلقة في مقابل المادية الجدلية ليست سوى مسألة ترتيب، وقضية أي منهما سبق الآخر.. ليست سوى قضية تنتظر البت فيها.

وهذا يؤدي بنا إلى سؤال هام آخر، وحين تُحل مشكلته.. سوف يتيسر لنا فهمٌ أفضل لنوايا ماركس الخفية. كيف استطاع ماركس أن

يتخَيل سلامة وفعالية أي نظام، يمكن أن يستمر بغير خلل، مع غياب الأخلاقيات؟ لقد كان من الذكاء بمكان حتى إنه من المستحيل أن تكون هذه النقطة قد غابت عنه، بل لقد كان لديه من الذكاء ما جعله يدرك حلقة الاتصال بين الأخلاقيات وبين الله تعالى. إن الإنسان بطبيعته ليس حيوانا أخلاقيا، بل على النقيض.. إنه الحيوان الأكثر فسادا تحت قبة السماء، وكل المحاولات لجعل الإنسان أخلاقيا، انبثقت جميعها من الإيمان بالله تعالى. ولكن ماركس كان يعلم جيدا أن الإيمان بالله لم يكن متوافقا مع فلسفته، وكل ما يقود إلى الله تعالى.. أو ما يمكن أن يقود إليه.. فهو محظور تماما. وكان عليه الاختيار بين أحد أمرين: إما أن يشجع الأخلاقيات في نطاق الشيوعية.. حماية لمصالحها، وبذلك يتعرض لخطر إعادة العالم الشيوعي إلى الله تعالى، أو يتجنب المخاطرة.. ويقبل بدلا عنها إمكانية وقوع ما يهدد النظام نفسه. ولعله كان يأمل أن يكون رعب العقوبة المتوقعة، كافيا لتعويض غياب التربية الأخلاقية لدى القائمين على شؤون الحكم الشيوعي.

ولكن.. لقد ثبت خطؤه في هذا. فالإنسان حيوان فاسد.. فسادًا يتجاوز بطش العقوبة القاسية لنظام شمولي يعمل على تقويمه.

LENIN
لينين

إن الفلسفة الماركسية للمادية الجدلية لا تترك مكانا لله تعالى، ولأجل نفس هذا السبب.. شن "لينين" حملة شرسة على أولئك الذين بلغت بهم الجرأة أن يكونوا دعاة للفضيلة، حتى وإن كان ذلك ضمن نطاق الإطار الشيوعي.

وعلى هذا فليس في الماركسية من مكان لوحي من السماء، ولا مبادئ أخلاقية مستمدة من ذلك الوحي. ولا بد أن ماركس قد اعتبر أنه من الضروري إبعاد الأخلاقيات عن مجال الشؤون الإنسانية، بسبب أنها

تتضمن الاحتمال بأن تُفضي إلى الله تعالى.

وهناك سبب قوي آخر يتعلق بالغرض الذي ربما من أجله نبذ ماركس الأخلاقيات، وهو الخوف من أن تقف الأخلاقيات في الطريق لتكبح من جماح ثورة البروليتاريا. فقد كانت البروليتاريا مرتبطة بالسادة من البرجوازية باسم الالتزام الأخلاقي، وكان من الضروري تحطيم تلك الروابط، وإطلاق الحرية للجماهير لتفعل كل ما تراه ممكنا للثورة ضد طغيان واستبداد الطبقة المغتصبة. وعلى ذلك.. كان من الواجب عدم السماح بأي التزام أخلاقي أن يقف في الطريق، بل كان من الضروري أن تكون لهم الحرية الكاملة في القتل والاغتيال والنهب والحرق والتدمير، حتى يمكن إبادة النظام الاقتصادي والسياسي البرجوازي. ولهذا فقد رأى ماركس في الأخلاقيات العدو اللدود لنظامه اللاإلهي.

ورغم واقعية وذكاء ماركس، إلا أنه ظل مليئا بالتناقضات. لقد وضع لأفكاره المقترحة أساسا سليما راسخا يقوم على تفكير طويل وتحليل عميق، الأمر الذي يصعب معه تصور اتصافه بالتناقضات المتأصلة في شخصيته. ومع هذا.. فإن التناقضات كانت متفشية بعمق في الفكر الماركسي. وكانت إحدى هذه التناقضات هي النبذ الكامل للأخلاقيات من ناحية، وتنظيم حركة ثورية.. تقوم أساسا على ظاهرة أخلاقية هي التعاطف مع المظلومين.. من ناحية أخرى.

غير أن هذا لم يكن كل التناقض. إن التعاطف مع قضية البؤساء، إذا تُرك له الحبل على الغارب، بغير أية ضوابط من العدل والإنصاف، فإنه يؤدي إلى اقتراف أعمال وحشية ضد الآخرين، وهنا يبدو التناقض أشد سطوعا ووضوحا. فإن لم تكن هناك عدالة في الشؤون الإنسانية، ثم قمتَ بحركة باسم العدالة من أجل إعادة توطيدها، فإنك لا تستطيع أن تنتهك حرمة نفس المبادئ التي تؤسس عليها الحركة التي تقوم بها. إذ أنك بهذا تقطع نفس فرع الشجرة الذي تتعلق به للنجاة من السقوط.

وأيضا.. إن الذي ينشئ نظاما لا يعترف بأية قيم أو اعتبارات أخلاقية، يكون في تناقض مع نفسه حين يتوقع طاعة وولاء كاملين لنظام.. هو في جوهره لاأخلاقي. كذلك.. هناك تناقض آخر في ماركس يتعلق ببرنامجه الذي خطط له أحسن تخطيط، وحسب له ألف حساب، لكي يتمكن من مساعدة البروليتريا على الإطاحة بطغيان البرجوازية المستبدة. إذ مهما كان اسم هذه الفلسفة.. سواء كانت تُسمى الاشتراكية العلمية أو المادية الجدلية.. إذا كانت هذه الفلسفة صحيحة بالفعل، فإنها ليست بحاجة إلى مساعدة خارجية من أناس يعالجونها ويقودون خطواتها.

والأمر الآخر الذي يستحق الملاحظة.. هو أن المادية الجدلية لماركس كانت متأثرة تأثرا شـــديدا بالمؤَلَّف الضخم لداروين: أصل الأجناس (The Origin of Species). وفي الواقع.. إن الدراسة العميقة تكشف أن المادية الجدلية ليست مجرد اسم آخر لنظرية داروين: صراع البقاء، بعد أن تم توسيعها لتشمل الشؤون الإنسانية.

إن عوامل البقاء من حصول على الطعام، وتوفير وسائل المعيشة، هي الشغل الشاغل في حياة الإنسان، تماما كما كانت هي نفسها العوامل المتسلطة على الأنواع الحيوانية الأولى، من قبل أن يوجد الإنسان. وقانون "البقاء للأصلح" لا يزال يعمل ويؤثر الآن تماما كما كان يعمل في السابق.. بلا أي اختيار للحياة في أن تنتهج نهجا يختلف عما يقضي به هذا القانون. وهذه حقيقة علمية. فإذا كانت الفلسفة الماركسية لا تتسم بهذه الغائية والدقة والحتمية، فلا يمكن لعقيدة ماركس أن تُوصف بأنها علمية. وبالتالي فإن المادية الجدلية تفقد قيمتها كظاهرة طبيعية حتمية.

ولنبحث الآن كيف يختلف التطور والارتقاء عند داروين عن المادية الجدلية. إن النظرية الداروينية تسود وتهيمن على كل ما عداها في صياغة شكل الحياة وشق طريقها. وهي ليست في حاجة إلى برنامج أيديولوجي

للدفاع عنها، ولا تفتقد المساعدة الخارجية لتوطيد أركانها. بل على العكس من هذا.. إن لها القدرة على تدمير وإحباط أية محاولة خارجية تعترض مسيرتها. وإن لم يكن داروين قد وُلد، وإن لم يكن أحد قد كشف أسرار الارتقاء والتطور، لظلت حقيقة التطور بلا أي تغيير، ولما تسبب غياب داروين في حدوث نتفة من تغيير في حتمية هذه الحقيقة.

إن قوانين الطبيعة لا تعتمد في عملها على الفهم الإنساني، وليس لإدراك الإنسان أي دور في حقيقة وجود هذه القوانين. وسوف تظل عجلة القوانين الطبيعية تدور، سواء فهمها الإنسان أم لم يفهمها.

ويختلف الأمر تماما في حالة المادية الجدلية. فلو لم يولد ماركس ولينين.. لما كان من الممكن أن تقع ثورة شيوعية.. لا في روسيا ولا في أي مكان آخر من العالم. لقد كانت روسيا في تلك المرحلة في حالة استعداد تام للثورة.. بقيادة لينين أو بغيره. وكان الفرق الوحيد هو أن لينين استطاع أن يركب موجة الثورة، حين تعالت تلك الموجة، فاستغلها لمصلحة الاشتراكية العلمية. وأما في حالة المنظور الدارويني للارتقاء.. لم تكن هناك حاجة بتاتا إلى مُدافع لحماية مصالح القوانين الطبيعية، ولا منظم يساعد في تنظيم عمليات التاريخ الطبيعي.

وعندما نقارن فلسفة هيجل مع فلسفة ماركس.. نجد أن السؤال الهام الذي يقفز إلى الأذهان هو: هل الأفكار تسبق التغييرات الموضوعية في العالم المادي، أم أن التغييرات الموضوعية نفسها هي التي أوجدت الأفكار عند تواردها؟ فإذا كان ماركس على حق.. لم تكن به حاجة إلى القيام بحملة فكرية ومثالية حتى يحقق ثورة شيوعية، إذ ما كان ليحدث أي شيء يعارض حتمية النتيجة العلمية.

ولو كانت الشيوعية بالفعل قانونا في ذاتها كمثل قانون الارتقاء، لكان من المستحيل لأية أفكار معارضة.. مهما كان من قوة تأثيرها.. أن تعوق توطيد وتقدم الشيوعية، حتى ولو اتفقت وتواطأت تلك الأفكار على

ذلك. وهذا مثال آخر على وجود التناقض في ماركس. فمن الواضح أنه يرى أن المادية الجدلية كانت تسبق الفكرة، ولكنه كان يستند تماما إلى قوة الفكرة لتحقيق ماديته الجدلية.

ولو كانت أحلامه تقوم على أسس علمية سليمة، لكان من المنطقي أن يتحقق ما يبتغيه من نقل القوة الاقتصادية والسياسية من أيدي القلة إلى أيدي الكثرة، ولكن لم تكن هناك حتمية في حدوث الظروف التي خلقت ماركس والتي خلقت لينين. إن مجرد مولد ماركس بمواهب معينة، وكسبه لتأييد صديق ذي فكر متّقد وتأثير واسع وثروة كبيرة مثل إنجلز، لم يكن أبدا نتاجا طبيعيا للمادية الجدلية.

وأيضا.. كان فشل ماركس في تحقيق هذه الثورة في ألمانيا، التي كانت.. حسب فلسفته.. حلبة صراع مثالي بكل العوامل الموجودة فيها لتحقيق ثورة بروليتارية، إنما هو برهان شاف على أن المادية الجدلية في حد ذاتها، لم تكن كافية لتحقيق تغيير وجه العالم السياسي والاقتصادي.

ومن ناحية أخرى، فإن نجاح لينين في روسيا، وهي بلد يقل كثيرا في قاعدته الصناعية عن ألمانيا، إنما هو برهان آخر يؤيد المقولة التي تؤكد على أن الثورة الروسية كانت مجرد مصادفة و لم تكن نتيجة مباشرة للماركسية. لقد كان من سوء حظ روسيا وتاريخها أن لينين كان موجودا في تلك المرحلة الحرجة، التي أتاحت اللحظة المواتية للينين للانقضاض، نتيجة لرد الفعل ضد طغيان وفساد وأنانية حكم القيصر المستبد، مقرونا بشعور الإحباط والخيبة بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى.

على أية حال.. كانت روسيا مستعدة تماما للثورة. وفي الواقع.. كانت روسيا مستعدة تماما لأية ثورة. ولو لم تكن الثورة الشيوعية قد اندلعت، لاشتعلت ثورة أخرى. فكل ما كان مطلوبا هو وجود قائد في منْزلة لينين، وكان من الصدفة البحتة أن روسيا وجدت في لينين القائد الذي تصادف أن يكون تلميذا لماركس في الاشتراكية العلمية. وذلك الذي

كان يُدين الاستغلال بأقوى عبارات الاستهجان وأشد لهجات الاستنكار.. صار هو نفسه أسوأ المستغلين في تاريخ روسيا. فلم تكن الاشتراكية العلمية إذًا.. بل كان لينين هو الذي فرض التاريخ على روسيا.

وبعيدا عن التناقضات، يمكن إلقاء اللوم على ماركس لإهماله أمرا في غاية الأهمية، إذ أن اشتراكيته العلمية تجاهلت من حساباتها عامل العقل.

إن العقل هو مركز الأفكار، ويتميز العقل بشخصيته الخاصة منفردا عن هوية الْمُخ، فالمخ هو المقر المادي للعقل، ولكن العقل الذي يشغل المخ ويسكن فيه ليس ماديا. وإذا استطعنا تشبيه المخ بالحاسوب فيمكن تصور أن العقل هو المشغل لهذا الحاسوب. وتتوَلد الفكرة الذكية حين يتعامل العقل مع المخ الحاسوبي. وحتى لو افترضنا وجود تشابه وتطابق تام وكامل بين مخين، فإن الأفكار الناتجة عن كل منهما لن تكون متطابقة إذا تعامل معها عقلان مختلفان.

إن التقدم الإنساني كله.. العلمي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي.. إنما يحدث تحت تأثير العقل. وتمارس دول العالم القوية سلطتها وسلطانها على الأمم الضعيفة بواسطة الخبرة المتراكمة لقوة العقل المتفوقة. وهذه هي نفس القوة المتفوقة لدى البرجوازية التي تجعل منها قوة هائلة في تملكها المطلق للسُلطة. غير أن المادية الجدلية لم تأخذ هذه القوة العظمى للعقل في الحسبان.

لقد أخطأ ماركس خطأ فاحشا حينما تصور أن الثروة المتراكمة في النظام الرأسمالي، هي المجموع الكلي لفائض قيمة العمل، الذي يستغله الرأسماليون. فقد اعتقد أن قيمة طاقة هذا العمل تنتج عن المال غير المدفوع لقيمة العمل المستَغَّل، مضافا إلى ذلك قيمة الفوائد المتراكمة عن الأموال المعطلة والمودعة في البنوك. وبهذا تكون الغالبية البروليتارية تُنتهب بواسطة الأقلية البرجوازية. ولكن مجرد العمل في ذاته لا يستطيع أن يتسبب في تراكم الثروة بغير أن يتزاوج العمل مع القوة المتفوقة للعقل،

وهذا ببساطة ما تجاهله ماركس. فالاختراعات العلمية المتقدمة هي من نتاج العقل، وهي وحدها التي أحدثت ثورة في النسبة بين المنصرف والعائد في قيمة العمل تجاه الإنتاج.

إن العمال في العديد من دول العالم الثالث لا يزالون يكدحون ويعرقون، ولكن نتاج عملهم لا يُعتبر شيئا بالمقارنة مع نتاج العمل في الدول المتقدمة صناعيًا. فالآلات المتفوقة، والوحدات الإنتاجية الْمُمَيْكنة بدرجة عالية، والتقنية الحديثة.. حينما تتزاوج كلها مع العمل يكون لها كل الأثر الهام الذي يُعَول عليه. وهذه القدرات المتفوقة كلها تحققت بواسطة العقل، الذي يرجع إليه الفضل في تحسين الإنتاج، وإلا.. فإن العمل هو العمل، سواء كان في بريطانيا أو في بنغلادش، في جزر الباسيفيك أو في الأدغال الأفريقية؛ فلماذا إذن يكون عائد العمل في مكان ما أعلى منه في مكان آخر؟ من الواضح أنه العقل الذي يلعب الدور الحاسم في الناتج غير العادل للعمل. غير أنه يجب أن يؤخذ في الاعتبار هنا أن قوة العقل هي عامل طبيعي يمكن أن يُستخدم للخير أو للشر، اعتمادا على من يستعمله.

وحيث إن العمل حين يجد العون من العقل يصير أكثر إنتاجا، فكذلك الحال أيضا مع الرأسمالية التي حين تجد العون السليم من العقل المتفوق تصير قوة هائلة. ولا تنطلق قوة الرأسمالية هذه آليا من تراكم الثروة في أيد قليلة. إن الثروة لا يمكن أن تتراكم في أيد قليلة إلا إذا كانت قوة العقل تقف في جانبها. وإذا كانت قوة العقل آثمة فاسدة فإنها سوف تخلق مافيا، ولن تستطيع قوة كل البروليتاريا أن تنجح في الوقوف ضد هذه المافيا.

ومتى بدأ وجود هذه المافيات.. فإن عددها يظل يتضاعف لتمد سطوتها على كل مجال له علاقة بأية مصالح إنسانية. ومع مرور الوقت، تزداد قوتها وتفرض نفوذها على الكبير والصغير. وسواء كان الأمر في المجال المالي، في التجارة، في السياسة، في إدارة الأعمال، في الصناعات

الترفيهية، في مجال الصحة والمرض، في صناعة السياحة والسفر التي تتنامى باستمرار، وفي مجالات استعمال الحاسوب وصناعة الإلكترونيات.. في كل مكان وفي كل مجال.. فإن هذه المافيات تُلقي بظلالها المشؤومة، التي تتزايد حجما وعمقا وأثرا.

وبالتالي.. فإن قوة العقل، حميدة كانت أو خبيثة، هي التي في النهاية تتحكم في عالم المادة، وليس لآلية المادية الجدلية دور مسيطر في صياغة قدر الإنسان. ويا للأسف! إن النتيجة الحتمية لرفض وجود الله تعالى هي.. فساد العقل الذي كان من المقدر له أن يحكم وينظم أمور العالم.

وليست الماركسية وحدها هي التي تنفرد بإنكار قيام الأخلاقيات بأي دور في الأمور الإنسانية، فإن ما يقوم به الشيوعيون جهرة يقوم به أيضا الرأسماليون، ولكن بأسلوب بارع من الخبث والنفاق. إن سياستهم واقتصادهم وتجارتهم تخلو أيضا من الأخلاقيات بشكل لا يقل عن نظرائهم في العالم الشيوعي، الأمر الذي يجعلهم جميعا شركاء في نفس الإثم. وإن قلة فرصة بروليتاريا الدول الشيوعية في الوقوف ضد من يقومون باستغلالهم، تماثل أيضا قلة فرصة الجماهير في العالم الرأسمالي.

والمافيات التي تخلقها قوة العقول الخبيثة الفاسدة في الرأسمالية، لا تقل في فظاعتها عن مثيلاتها التي تعمل في العالم الشيوعي، عندما تتعارض مصلحة الضعفاء والمحرومين مع مصالح الطبقة الحاكمة. وهذا هو العامل الذي يجب أن نركز عليه الآن. فما الذي يجعل المحرومين السابقين في القيادة الشيوعية ينسون فجأة كل آلامهم وتعاساتهم في الماضي، ويبدأون في التحكم في أقدار الجماهير بقلوب من حجر وبراثن من حديد؟ وأية أخلاقيات تلك التي تحكمهم؟ وأي وخز من ضمير يؤنبهم؟ فحيث لا توجد أخلاقيات لا يوجد أيضا وخز لضمير. إن هذه الآلية التي لا قلب لها، والتي تختص بنظام معدوم الرحمة، هي المسؤولة في نهاية الأمر عن فشل الشيوعية.

ويكشف الفحص العميق والدقيق لكل النظم الاستبدادية عن تناقض غريب متأصل. إذ لا فرق بتاتا بين ما إذا كانت تلك النظم تقوم على فلسفة شمولية، من شيوعية أو فاشية، أو كانت تنبثق عن صياغة دكتاتورية للقوة من حاكم مطلق رأسمالي. هناك عامل واحد مشترك بينهم جميعا.. وهو أنهم لا يتحملون أن يكونوا أخلاقيين، لأنهم لا يستطيعون البقاء بغير الاستبداد والاضطهاد، والأخلاقيات لا يمكن أن تتعايش جنبا إلى جنب مع قسوة الاستبداد. وعلى هذا لا يمكن لهم أن ينجحوا ويزدهروا إلا في غياب الأخلاقيات، ومع ذلك.. فإن نفس هذا الغياب الأخلاقي، هو الذي يؤدي في النهاية إلى سقوطهم.

إن مجرد القسوة والاستبداد، لا تكفي لحماية أي نظام شمولي أو استبدادي. فإن قوة العقول الماكرة.. التي تخطط المكائد وتدبر المؤامرات.. لا تقل في أهميتها عن أهمية ممارسة الاستبداد من أجل استمرار وجود تلك النظم. إن الرباط غير المقدس الذي يربط بين العقول الفاسدة والقلوب عديمة الرحمة، هو ذلك الذي تتولد منه كل النظم الدكتاتورية. وهذا الزواج غير الشرعي هو الذي يساعد هذه النظم على البقاء لفترة قد تطول أو تقصر، ولكنه دائما ينفصم في نهاية الأمر. ونفس عوامل التآمر والفقر الأخلاقي تصير في النهاية سبب سقوطهم من علٍ. وفي الواقع.. لا شيء، سواء كان صالحا أو طالحا، يمكن أن يحدث في شؤون الإنسان كنتيجة حتمية تتولد من داخله. إن العاملَيْن الأكثر أهمية هما اللذان يشكلان قدر الإنسان.. وهما عامل العقل وعامل الأخلاقيات. فإن قوتهما أو ضعفهما، صلاحهما أو طلاحهما، هو ما يقرر مصير كل ما يخطط له الإنسان. وعلى ذلك فقد كان ماركس مخطئا في الحالتين. وعندما نزيل عاملَي العقل والأخلاقيات من الاشتراكية العلمية، فإن ما يتبقى ليس هو بعلمي ولا باشتراكي. إن جماهير البروليتاريا.. مهما تضاخم حجمها وازداد عددها، فإنها ليست كفوا أبدا لمواجهة جبروت قوة العقول الخبيثة.

والويل لذلك الزمن الذي تتواطأ فيه القوة الغاشمة للعقل الخبيث مع غرور الذات لحكم العالم. وعلى هذا.. فلن يكون هناك من فرق يُذكر بين ما إذا كان العالم يُحكم بواسطة آلية مادية خالية من العقل وعارية عن الأخلاق، أو يُحكم بواسطة مافيا رأسمالية لها عقل خبيث وتفتقر للأخلاقيات. ومع ذلك هناك فرق، بل وفرق كبير في هذا الشأن الذي يكشف العيوب المتأصلة في الماركسية. ففي الرأسمالية يوجد دائما قدر من الحرية يتمتع به كل فرد في المجتمع، وهذه الحرية هي التي تعزز أهداف المجتمع. أما في الشيوعية فلا توجد حرية، بل ظلام من فتور متزايد، يُلقي بكآبته ويتخلل كل نسيج في المجتمع الشيوعي. وهو يوهن كل الجهود فيما عدا المجالات التي تجد الدولة نفسها مضطرة لتشجيعها.

المأزق الآخر الذي تواجهه الماركسية هو أنه لا يمكن تعريف الأخلاقيات بأنها مصطلحات حزبية، فإن مجتمعا تعلم وتدرب على أن يرفض كل الالتزامات الأخلاقية تجاه الآخرين.. لا يُتوقع منه أن يفي بحق هذه الالتزامات تجاه نفسه. فإن السلوك الإنساني عامة يشير إلى أنه إذا تعَوّد المرء على اللاأخلاقيات، فإنه يظل دائما بلا أخلاقيات. ونفس هذا المبدأ ينطبق على النظام القيادي الشيوعي، إذ يبدو أن اللاأخلاقيات تُقَوّي من قبضة الفساد على النظام الذي تتولاه هذه القيادة، وكلما ازداد فسادها كلما ازدادت هي غلظة وقسوة، حتى تظل لها السيطرة الدائمة.

لا يمكن للأخلاقيات واللاأخلاقيات أن تتوجه حصرا في اتجاه واحد معين، فمن المستحيل أن تعامل القيادة الشيوعية العالم الشيوعي بالأخلاقيات، حتى ولو قرروا وأرادوا ذلك، بينما هم مدربون على التعامل مع العالم غير الشيوعي والمصالح غير الشيوعية بدون أدنى الالتزامات الأخلاقية. وقد كان هذا العامل وحده قويًّا وكافيا ليحقق سقوط الدكتاتورية الشيوعية على المدى الطويل.

إن الجملة المشهورة التي تقول: "السُلطة مَفسدة، والسُلطة المطلقة

مفسدة مطلقة" تنطبق تماما على القيادة الشيوعية. واللاأخلاقي لا يمكن أن يبقى طويلا بغير اللجوء إلى القسوة والاضطهاد والتغاضي التام عن مقتضيات العدالة. وكما أن الكراهية تُوَلّد الكراهية، كذلك لا تؤدي اللاأخلاقيات إلا إلى المزيد من الأخلاقيات. وهذه الحالة المتواصلة من التغاضي عن القيم الأخلاقية عند أعلى مستوى من هرمية القيادة الشيوعية لهي كفيلة أن تؤدي حتما إلى دكتاتورية مطلقة لاأخلاقية. ولا يمكن لهذه الدكتاتورية المطلقة اللاأخلاقية أن تبقى لزمن طويل محصورة فقط في دائرة معينة صغيرة من القيادة، فمن أجل الحفاظ على استمرار بقائهم الجماعي يكون من المحتم أن يسود الفساد أيضا على جميع المستويات المجاورة والقريبة لدائرة اتخاذ القرار، وهكذا تبدأ هذه الرقعة البغيضة من اللاأخلاقيات تتزايد وتتسع أكثر فأكثر، إلى أن تنتشر في جميع المستويات.

أما السُلطة المطلقة لنبي مرسل من عند الله تعالى، فهي تختلف اختلافا جوهريا عن السلطة الدنيوية. إن سُلطة النبي محكومة بمجموعة كاملة من القوانين الدينية الأخلاقية التي لا يستطيع أن ينتهك حرمتها، وإلا ينهار نفس الصرح الذي يستمد منه هذه السُلطة. ولا يغيب عن البال هنا أن القوانين الأخلاقية التي تتنَزل بوحي من الله تعالى تتميز دائما بالاستقامة، كما أن لها أيضا تأثيرا يجعل من يتبعها مستقيما في سلوكه. وعلى هذا فإن الحقيقة اللدنية التي من وحي الله تعالى، هي وحدها التي لها القدرة على علاج الإنسان من أسقامه الجوهرية وعلله الحقيقية. ولا يستطيع أي قانون للسلوك.. يكون من خلق العقل الإنساني المحض.. أن يحقق هذه المعجزة، حتى ولو استعان بالإجبار والقسر بغير رحمة ولا هوادة. إن الفرق الرئيسي بين دكتاتور الدنيا وبين السُلطة المطلقة للنبي، هو أنه بينما لا يخضع الدكتاتور الدنيوي لأية تشريعات قانونية، فإن الأنبياء يخضعون كلية وبشكل كامل وتام للقانون الأخلاقي في كتاب الله، الذي في نفس الوقت يحكم أيضا جميع أتباعهم في مساواة كاملة. وهذا الفرق الحيوي..

هو الذي يخلق البون الشاسع بين النبي والدكتاتور، عند المقارنة بين السُلطة المطلقة لكل منهما.

إن أية حكومة شيوعية تأتي إلى السُلطة، لا يمكن أن تُزاح بواسطة ثورة البروليتاريا. فإن السُلطة والقوة التي تملكها هذه الحكومة هي قوة شمولية وبلا أية رحمة. وكلمة الرحمة، أو حتى مجرد بعض الألفاظ عن الأخلاقيات، لا مكان لها في قاموس الماركسية. لقد كان "ستالين" نموذجًا لقانون السلوك الماركسي اللاأخلاقي. إذ أن جرائم القتل الجماعية التي ارتُكبت ضد أفراد البروليتاريا أنفسهم.. على مذبح الماركسية.. خلال الحكم الدكتاتوري لنظام ستالين، لهي أكبر شاهد على "روعة إنجازاته"، من وجهة نظر الفلسفة الشيوعية بالطبع.

واحسرتاه! لقد فشلت عبقرية ماركس في اكتشاف الضعف المتأصل في ماديته الجدلية. فإن قبضة الشيوعية.. حتى ولو كانت أقوى من أعاصير الصحراء.. فإنها ما كانت لتنجح في تسوية العالي بالداني في المجتمع الإنساني.

إن البحر العاصف بأمواجه الهادرة يعود إلى الهدوء، بعد أن تكون كل عوامل الطبيعة من ثَوَران واضطراب قد بلغت ذروتها، ثم يبدو من بعدها في صورة من الاستقرار والسكون. وبالمثل فإن الصحراء المنبسطة المترامية بلا تلال أو هضاب، تعطي الانطباع الخادع بوجود السكون والهدوء الشامل. وهذا الهدوء المؤقت للبحر، والسكون الخادع في الصحراء، هو الأقرب إلى واقع الأمر بالنسبة لمفهوم الماركسيين للاستقرار والسلام في المجتمع الإنساني. ولكن قليلا ما يعلم الماركسيون أن صورة الهدوء والسكينة هذه التي تقدمها لنا الطبيعة، ليست في الحقيقة سوى صورة للموت. فحيثما يوجد التساوي المطلق ينعدم التفاعل بين قوى الطبيعة. ولكن ما نسيَه الماركسيون أيضا، هو أن الهدوء التام للبحر، أو السكون الميت للصحراء، لا يشارك الإنسان حرية اختيار الغش أو

الاحتيال، وخلق أعالي وأداني زائفة، بعدما لم يعد هناك أعالٍ وأدانٍ في الواقع. وبالإضافة.. من المستحيل للإنسان أن يخترع نظاماً يزيل كل عناصر العلو والتدني من المجتمع الإنساني. فإن قطرات الماء قد تبدو متشابهة، وذرات الرمال قد تكون كل منها صورة طبق الأصل من الأخرى، ولكن البشر لم يخلقوا ليكونوا كذلك.

إن الأفراد في الفلسفة الماركسية هم الذين يخلقون المجتمع المثالي الذي تسوده السكينة والدعة الشيوعية. فإذا كان لكل مواطن في الدولة الشيوعية فُرصا اقتصادية متساوية، وكل منهم يتناول نفس الكمية من الخبز والزبد واللحم؛ إذا كان كل ما يحيا الإنسان من أجله أو يتمنى تحقيقه قد وُضع في متناول يده، في تطابق تام مع كل متطلباته، فلا يمكن أبدا أن تنمو الرذائل الإنسانية التي تتولد من الجشع. ففي مثل هذا المجتمع الذي يتساوى كل أفراده اقتصاديا، يبدو أنه لا حاجة فيه لأحد أن يسرق أو يسلب أو يغش أو حتى يحاول أن يجمع ثروة، حيث لن تستطيع الثروة أن تأتي إليه بشيء أكثر مما توفره له الدولة. ولا بد أن مثل هذا المجتمع سيتخلص في النهاية من كل الجرائم، لأن الجشع، الذي هو أقوى العوامل المسببة لارتكاب الجريمة، يكون قد اجتُث تماما من المجتمع.

عند ضمان تحقيق هذه الحالة من الفرص المتساوية، والحاجات المتساوية، والتلبية المتساوية لهذه الحاجات، بشرط أن يقوم بالطبع كل فرد في المجتمع بالمشاركة في العمل حسب جهده، فعندئذ فقط يمكن أن يتحقق الحلم الشيوعي بتوفير الاستقرار التام، ومثل هذا المجتمع لن يحتاج إلى دولة لحكمه أو لتنظيم أموره. وهذا باختصار هو المجتمع المثالي للمادية الماركسية.

إن اتجاهات التطورات السياسية والاقتصادية الأخيرة في العالم، قد أبطلت هذه الأسطورة المادية، ولكن جنة عدن الماركسية ليست في حاجة إلى قوى خارجية لتحطيمها، فإن التخلي عن الأخلاقيات في حد ذاته

كان هو العامل الكافي لضمان هلاكها في نهاية الأمر.

وهناك صدوع أخرى متأصلة في فلسفة ماركس الصارمة. فبصرف النظر عن أنها لا تُقدم أية قواعد أخلاقية تحث أفرادها على القيام بمسؤولياتهم بأمانة وإخلاص، فإن الإنكار القاطع لوجود الله تعالى، والتأكيد على أنه لن تكون هناك حياة بعد الموت، وبالتالي فلا حساب ولا عقاب.. كل هذا يشجع موظفي الحزب على عدم الانضباط، وعدم الخضوع للقواعد والقوانين، وللنُّزوع إلى الأنانية والمصلحة الذاتية، وهذا يؤدي إلى أن تجتاح الجميع حالة كاملة شاملة من الأنانية، التي لا يكبح جماحها قيود أو حواجز تمنع من تحقيق الرغبات الخاصة والطموحات الذاتية. ويشعر المرء أنه في حِلٍّ من أي قيد ليفعل كل ما يروق له، لكي يُشبع ما يعتمل في نفسه من مشاعر الجشع والطمع. وكما يحدث دائما.. تتضافر أعمدة الفساد مع بعضهم البعض للدفاع عن مصالحهم الطبقية، وهم دائما يستطيعون أن يجدوا الوسائل التي تضمن عدم انكشافهم.. وبالتالي عدم تعرضهم للعقوبة. وهكذا تقع الطيور على أشكالها، ويتعاون الجميع لحماية مصالحهم. ولعل هذا النُّزوع الفطري تجاه السلوك الأناني لدى الإنسان هو الذي جعل ماركس يقرر أن الإنسان حيوان لاأخلاقي، ولكن قليلا ما كان يدرك حينذاك أن نفس هذا النُّزوع الفطري هو الذي سوف يحقق في النهاية انهيار الإمبراطورية الشيوعية.

إن التخلي عن الأخلاقيات ليس هو العائق الوحيد الذي يمنع تحقق حلم ماركس في تكوين مجتمع بغير دولة. ولا يكفي التكافؤ وحده في إتاحة الفرص لتحقيق هدف إيجاد مجتمع بغير دولة، كما لا تكفي لذلك الأطماع المنحصرة فقط في إنجاز المتطلبات الاقتصادية. فأين الحل لمشكلة الطمع في الحصول على مقاليد السُلطة المتفشي في كل نظام دكتاتوري؟ وأيضا.. أين الضمان العلمي في أي نظام لسد منافذ الغيرة والحقد والانتقام فيما يتعلق بالاستيلاء على السُلطة؟ إن فلسفة ماركس العلمية لم

تستطع حتى أن تقترب من هذه القضية.

ولكي يصل المرء إلى المجتمع المثالي المأمول.. عليه أن يعيش في ظل مخاطر المجتمع الذي لا يعرف الرحمة ولا الأخلاقيات. ولكن طويلا.. من قبل الوصول إلى مرحلة تحقيق قيام هذا المجتمع المثالي حيث المساواة التامة.. سياسيا واقتصاديا.. يكون الفساد المتأصل في الإنسان قد هدم نفس الصرح الذي شُيد عليه المنظور الشيوعي للحياة.

وفي ضوء هذا.. عند إعادة النظر في بحث المشاكل التي تؤدي إلى انهيار الإمبراطورية الشيوعية.. نجد أنه ليس من المتعذر معرفة السبب الرئيسي للانهيار، وهو فساد الأخلاق لدى الموظفين العموميين. لقد كان الفساد في العالم الشيوعي هو المسؤول الأول عن انهيار الإمبراطورية الشيوعية المتمثلة في الاتحاد السوفياتي. وعلى هذا.. كان فشل النظام مكتوبا ومسجلا في قدَر الشريعة الشيوعية، حين تم إبعاد الأخلاقيات منها.

من جانب.. هناك الحقيقة المستمدة من وحي الله تعالى، ومن جانب آخر.. هناك ما يُسمى بالحقيقة المستمدة كلية عن طريق الفكر الإنساني، وليس من الصعب أبدا اختبار فضائل كل من الفلسفتين. إن الوحي الإلهي يُعلن بكل قوة ووضوح أن تحقيق العدالة والإنصاف في شؤون الإنسان، لا يمكن أن يتحقق بغير أن يكون تطبيقا كاملا، فإن الفساد الأخلاقي والمبادئ الأخلاقية المبنية على العدالة المطلقة لا يمكن أن يجتمعا سويا. إن الحق المطلق هو جوهر جميع الأخلاقيات، والأخلاقيات الكاملة هي جوهر كل حق. وعلى هذا.. بغير إعادة زرع القيم الأخلاقية الكاملة في الإنسان، لا يمكن أن يُتَصَور تحقيق حلم إقامة الجنة على الأرض. وكان هذا دائما هو الحكم العام الشامل خلال جميع العصور.

لقد قام ماركس ليتحدى هذه الفلسفة القديمة قدم الزمن، التي تقوم على الوحي السماوي. وقد رفض ماركس هذه الفلسفة رفضا باتا،

وتقدم بدعوى مضادة مؤداها أن الإنسان ليس في حاجة إلى الهداية الربانية، بل كان من رأيه أنه لا وجود لأي إله. وعلى هذا يكون على الإنسان أن يشق طريقه بيده حتى يحقق أحلامه بخلق جنة على الأرض، ولذا فقد قام هو بشق الطريق معتمدا كلية على ذكائه وألمعيته، فكان طريقا يخلو تماما من الهدي الإلهي.

وعند إعادة النظر مرة أخرى في الرؤية الماركسية لمجتمع بلا دولة، يتضح لنا عيب آخر سبق الإشارة إليه. فقد افترض ماركس.. دون أساس يُذكر.. أن التكافؤ الاقتصادي حين يسود المجتمع، سوف يُزيل تماما أصل كل أسباب الجريمة، وعلى هذا فلن تكون هناك حاجة لقوة الدولة وسلطاتها لمحاربة الجريمة. ولكنه نسي أن الطمع والجشع عند الإنسان ليس وقفا فقط على الأنشطة الاقتصادية وحدها. فحتى لو تحققت كل الأهداف والأحلام الماركسية.. يظل هناك الكثير والكثير مما يطمع فيه الإنسان ويشتهي الحصول عليه، مما لم تلحظه عين الماركسيين.

إن الكثير والعديد من الشهوات والطموحات متأصلة في الطبيعة الإنسانية. وأية اقتراحات بتقديم حلول لا تأخذ هذه الطبيعة في الاعتبار لا يمكن أن يكون لها تأثير فعال. وعدم التكافؤ في الإنسان ليس منحصرا فقط في النواحي الاقتصادية، إذ يمكن أن يوجد عدم التكافؤ في القوى الجسدية أو المواهب الذهنية، وفي غير ذلك من قدرات العقل والوجدان. كذلك فإن رغبة الإنسان الفطرية في أن يحكم، وأن يسود، وأن يسيطر، وأن ينتصر على العقبات.. والرغبة في أن يحب وأن يكون محبوبا.. كلها تهيئ التربة الملائمة والمناخ المناسب لبذرة الطمع أن تضرب جذورها وتنمو.

والجمال هو أحد الأمور التي لا يمكن أن يشترك فيها الجميع بالتساوي.. رجالا ونساء، ولا يمكن توزيع الصحة والقدرات البدنية على الناس بمقاييس متكافئة. وقدرات السمع والبصر.. اللمس والذوق.. ما

يحب المرء وما يكره.. ما تشتهيه النفس وما تأباه.. المواهب الفنية.. التذوق الموسيقي.. الولع بالفن.. الإبداع الأدبي أو انعدام الاهتمام بما تهواه وتلتهمه بشراهة ديدان الكتب.. كلها مجرد أمثلة لعدم التكافؤ الذي خلقته الطبيعة نفسها خلال المراحل الطويلة للتطور، ولن يستطيع أحد من المدافعين عن الاشتراكية العلمية أن يلغي وجودها، فلا بد من قبولها كأمر واقع. والمشكلة هي أن هذه الاختلافات في ذاتها هي أصل سبب كل الفساد في المجتمع الإنساني، وتنشأ عنها كل الأمراض الاجتماعية. والحل الوحيد الصحيح لتنظيم وتهذيب هذه الميول الإنسانية يكمن في القوانين الأخلاقية المَنزلة من لدن الله تعالى، وهي بدورها لا قيمة لها بغير الإيمان بوجوده ﷻ. فإذا غاب الله من أمور الإنسان، وغابت الحقيقة اللدنّية الموحَى بها من التأثير على هذا الإنسان، فلن يبق هناك أي سلام في أي مكان.

إن هذه المقارنة المفصلة بين فلسفة ماركس اللاإلهية.. وبين الإيمان بالحقيقة الموحى بها.. تشرح موضوع البحث بوضوح. فمن ناحية.. هناك الفكر الإنساني بمفرده، بغير عون من الهدي الرباني، يناضل وحده من أجل العثور على حلول للمشاكل الإنسانية. ومن ناحية أخرى.. هناك الحقيقة اللدنية، من عند الله تعالى، تؤكد على أهمية دور الموازين الأخلاقية الكاملة لمقاومة الآفات اللاأخلاقية في الإنسان.

والدراسة المتأنية والناقدة لكل ما سبق.. تقود المرء إلى استخلاص نتيجة منطقية، وهي أن الفكر المجرد وحده غير كاف أبدا لهداية الخطى الإنسانية إلى السكينة والسلام.

وتكشف دراسة تاريخ الأديان أن السلام والسكينة لم يتحققا إلا بعد أن خاض مبعوثو السماء معارك بطولية لمقاومة اللاأخلاقيات في الإنسان. ومن خلال الكد والعرق والدم نشأت جزر من المجتمعات الإنسانية، تنعم بسلام يَقرُب من الكمال، وسط خضم بحار عاصفة من الجريمة والرذيلة.

وصحيح أن تلك البحار كانت تعود فتغمر هذه الجزر بمياه المغريات، ولكن برغم هذا.. كان مستوى الأخلاقيات الإنسانية يعلو دائما درجة أو درجتين. ولو لم يكن الأمر كذلك، ولو لم يكن هناك تدخل إلهي بإقامة حركات لإعادة تسليح الإنسان أخلاقيا.. لكان المجتمع الإنساني في حالة أسوأ مئات المرات مما هو عليه الآن. وعلى هذا فليس هناك من شك في ضرورة الوحي والحقيقة الموحى بها.

المراجـــــــع

1. WESTFALL, R.C. (1993) *The Life of Isaac Newton.* Cambridge University Press, Cambridge, p. 124
2. WESTFALL, R.C. (1993) *The Life of Isaac Newton.* Cambridge University Press, Cambridge, p. 122
3. WESTFALL, R.C. (1993) *The Life of Isaac Newton.* Cambridge University Press, Cambridge, p. 121
4. GUTMAN, J. (1963) *Philosophy A to Z.* Grosset & Dunlap Inc. New York.
5. KIERNAN, T. (1966) *Who's Who in The History of Philosophy.* Vision Press, New York, p. 54
6. COPLESTON, F. (1956) *Contemporary Philosophy.* Studies of Logical Positivism and Existentialism. Burns, Gates and Washbourne Ltd., London, pp. 154-155
7. SARTRE, J. (1975) *Existentialism and Humanism.* Eyre Methuen Ltd., London, p.34
8. LENIN, V, I. (1963) *Collected Works.* Vol.38, Philosophical Notebooks. Foreign Languages Publishing House, Moscow, p.201